الدفع

عناصر الموضوع

مفهوم الدفع	٨
الدفع في الاستعمال القرآني	١٠
الألفاظ ذات الصلة	١١
أسباب الدفع	١٣
مجالات الدفع	١٨
وسائل الدفع	٢٩
عواقب ترك الدفع	٤٧
نتائج الدفع	٤٩

مفهوم الدفع

أولًا: المعنى اللغوي:

دفع: الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدل على تنحية الشيء. يقال: دفعت الشيء أدفعه دفعًا، ودافع الله عنه السوء دفاعًا[(١)].

والدفع: الإزالة بقوة[(٢)]. ومنه يتبين لنا: أن الدفع معناه: الإزالة بقوة لكل ما يعرض من ضرٍ وأذى، كدفع بلية، أو دفع صائل ونحوه، وهي تدل على عموم الإزالة والإزاحة، والدفع لكل ما يدفع أو يندفع، حتى إنهم يقولون: تدفع السيل واندفع، أي: دفع بعضه بعضًا[(٣)].

والدفع إما أن يكون من الشخص لصالح نفسه، أي: يدفع الأذى عن نفسه، أو لصالح غيره، أي: يدفع الأذى عن غيره، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧-١٦٨].

فإنه شمل أمرهم دفع أذى الكافرين عن أنفسهم، وعن إخوانهم من المسلمين بحسب الظاهر، والآية الأخيرة أمرتهم على سبيل التعجيز -إن هم خافوا الموت بامتثال الأمر بالدفع- أن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين.

وقد يكون الدفع متبادلًا من شخصين أو فريقين؛ فيسمى حينئذ (دفاعًا)، و(تدافعًا)؛ لدلالة الدفاع والتدافع على الاشتراك في الفعل، فالأول فعله (دافع)، والثاني فعله (تدافع) مثل: (قاتل) و(تقاتل)، كلاهما يدل على المشاركة، ففي معنى التشارك ذكروا أن الصيغ (فاعل)، كخاصم، و(افتعل)، كاختصم، و(تفاعل) كتخاصم - تشترك كلها في هذا المعنى[(٤)]. ومنه تدافعوا الشيء: دفعه كل واحد منهم عن صاحبه. وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضًا[(٥)].

ومن خلال ما سبق عرضه من كلام أهل اللغة يتبين لنا أن كلامهم في معنى الدفع ومشتقاته يدور حول إزالة الشيء بقوة أو إزاحته بقوة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢٧٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) نزهة الطرف في علم الصرف، الميداني ص١١١-١١٢.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٧٤.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الدفع إذا عدي بإلى اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[النساء: ٦].

وإذا عدي بعن؛ اقتضى معنى الحماية، نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج: ٣٨].

وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝١ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٢-٣].

أي: حامٍ[(١)].

تبين لنا مما سبق أن الدلالة اللغوية للدفع تدل على عموم الدفع لكل ما يدفع أو يندفع، أما الدلالة الاصطلاحية للدفع فسوف نقتصر فيها على بعض تلك الدلالة العامة فتكون:

(دفع ما يلحق من الغير مما يعوق المسلم عن العمل للغاية التي خلق لأجلها، من كفر، وطغيان، وفساد، وشر، وإيذاء).

ويمكن أن يسمى ذلك (دفعًا)، كما يمكن تسميته كذلك (دفاعًا، ومدافعةً، وتدافعًا)، باعتبار أن كلًا من فريقي الحق والباطل يدفع الآخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

قرأ نافع بألف وكسر الدال (دِفَاع)[(٢)]، على اعتبار أن كلاً من أهل الحق المصلحين، وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله ويدافعه[(٣)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٦.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكي بن أبي طالب ١/ ٣٠٤.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٤٩١.

الدفع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دفع) في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾[النساء:٦]
الفعل المضارع	١	﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج:٣٨]
فعل الأمر	٤	﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧]
المصدر	٤	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٢٥١﴾[البقرة:٢٥١]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور:٧-٨]

وجاء الدفع في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: تنحية الشيء[٢]، ومما يجب التنبه له أن الدفع إذا عدي بـ(إلى) اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾[النساء:٦].

وإذا عدي بـ(عن) اقتضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج:٣٨][٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٠.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٨-١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود[١].

الجهاد اصطلاحًا:

بذل الجهد واستفراغه في مدافعة العدو[٢].

الصلة بين الجهاد والدفع:

جهاد الدفع نوع من أنواع الجهاد، والجهاد أعم صورًا.

قال الراغب: «والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والمجاهدة تكون باليد واللسان[٣].

٢ المحاجة:

المحاجة لغة:

والتحاج لغة: التخاصم، يقال: «حاجه محاجةً وحجاجًا: نازعه الحجة، وحجه يحجه حجًا: غلبه على حجته. وفي الحديث (فحج آدم موسى)[٤]**، واحتج بالشيء: اتخذه حجةً»**[٥].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦١٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٤٧٩٣.
(٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٤٨٢.

المحاجة اصطلاحًا:

المحاجة إذا هي: مبادلة الخصم الحجة بالحجة، فهي مفاعلة من: حجه يحجه محاجة، والمفاعلة تكون من طرفين، كالمباراة والمباهاة والمباهلة والملاعنة ونحوها، فهي مبادلة الحجج بين خصمين، كل منهما متمسك بما معه، منافح عنه، ويحاول إقناع خصمه بما معه.

الصلة بين المحاجة والدفع:

المحاجة صورة من صور الدفع، كذلك للباطل وأهله، وهي من نوع التدافع؛ لأن كلًا من الفريقين يحاول أن يدفع حجة الآخر ويبطلها.

أسباب الدفع

تحدث القرآن الكريم عن أسباب الدفع عند المؤمنين وعند الكافرين، وسوف نتناول في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب الدفع عند المؤمنين:

لما كانت غاية المؤمنين هي عبادة الله تعالى، وامتثال أوامره كانت تلك الغاية هي المحرك الأول لهم في جميع أمور حياتهم؛ ومن ثم فإن أهم أسباب الدفع لديهم هي:

١. تعبيد الناس لرب العالمين وحده.

وقد كانت هذه الرسالة واضحة في جهاد الصحابة وفتوحاتهم المجيدة، فهذا ربعي بن عامر يحمل دعوة الإسلام للفرس، ويدخل على ملكهم، غير هياب، ولا وجل، «فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا، وجاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[(١)].

٢. نصرة الدين، وأن يكون الدين كله لله.

فالمؤمنون أمرهم الله تعالى أن يدفعوا الكفر وأهله؛ لئلا يكون لهم العلو في الأرض؛ فيعبدوا الخلق لغير خالقهم؛ فأمر المؤمنين أن يجاهدوا الكافرين والمشركين؛ ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ وكلمة الكافرين هي السفلى.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإذا صار الدين كله لله؛ ترتب على تحقيق ذلك كل الخير للعباد؛ مما سنكشف عنه في نتائج الدفع من حرية المعتقد، وحرية العبادة وأمكنتها، وإحقاق الحق، ورفع الظلم، وتمكين الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

ثانيًا: أسباب الدفع عند الكافرين:

إذا كانت أسباب الدفع عند المؤمنين تنطلق من منطلق إيمانهم وطاعتهم لله رب العالمين، وتحقيق عبوديته؛ فإن أسباب الدفع عند الكافرين تنطلق من منطلق كفرهم بالله، وسخطهم، وعداوتهم للمؤمنين به، ومحاولة ردتهم، وصدهم عن سبيل الله،

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، الحميري، ٢/ ٤٥٨.

وإفسادهم، وإشاعة الفاحشة بينهم.

ومن أهم تلك الأسباب:

١. محاولة إطفاء نور الله تعالى بإشاعة الكفر، وإفساد عقيدة المسلمين.

لعل هذا يعد من أعظم أسباب دفع الكافرين المؤمنين، وقد يبدو ذلك مستغربًا؛ إذ قد يظن البعض أنه لا فائدة من ورائه لهؤلاء الكافرين، ولكنه الحقد -أولًا وقبل كل شيء- هو الذي يحرك أعداء المسلمين في قتالهم، ودفعهم، ورغبتهم في القضاء عليهم، ومحاولة إطفاء نور الله، ومحو كل مظاهر الإيمان وسلوكيات الطهر التي تذكرهم بجرائمهم، وتنكبهم عن سواء الصراط؛ ثم تأتي بعد ذلك بقية الأسباب من الاستحواذ على ثرواتهم ومقدراتهم وغير ذلك.

وقد أخبر سبحانه عن مدى عداوة هؤلاء الكافرين للمؤمنين، كاشفًا عن أسباب قتالهم إياهم، مبينًا أن أعظم تلك الأسباب هو إفساد المؤمنين بدفعهم عن الإيمان إلى الكفر، وأن يردوهم عن دينهم حسدًا وبغيًا.

فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأخبر تعالى عن مكنون صدورهم في ذلك، وأن عداوتهم للمؤمنين ما هي إلا بغي وحسد فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كما بين سبحانه أنهم ما كفروا إلا بعد معرفتهم بالحق واستيقانهم به، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا بغيًا على أنبياء الله تعالى وأتباعهم من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

وهم في ذلك كله يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم؛ حتى لا يكون ثم إيمان، ولا مؤمنون.

وهذا واضح بينٌ كشف الله تعالى عنه في كتابه، ووضحه للمؤمنين؛ حتى يعرفوا

أعداءهم، فقال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٢٩-٣٣].

فأمر سبحانه بقتالهم؛ لدفع فسادهم وكفرهم وعقائدهم الباطلة في عبادة غير الله تعالى، كعزير والمسيح عليه السلام حيث يريدون إطفاء نور الإيمان الواضح المبين الذي أرسل الله به رسله أجمعين، ودعوة الناس للكفر الواضح المبين من عبادة غير رب العالمين.

وبين في مقابل ذلك أنه ما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم إلا لدفع الكفر وأهله؛ ليظهر دين الحق على الدين كله، ولو كره المشركون.

وجاء نحو ذلك في سورة الصف كذلك، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ٨-١١].

حيث أخبر سبحانه عن أسباب وغايات الدفع عند هؤلاء الكافرين، ثم أتبعها بتهييج المؤمنين على دفع منكرهم وباطلهم؛ جهادًا في سبيل الله.

٢. إفساد أخلاق المؤمنين.

من الثابت لدى أهل الإسلام ارتباط الأخلاق بالعقيدة الصحيحة؛ فالإيمان بالله ورسوله هو القاعدة والأساس الذي تنطلق منه جميع الأعمال الصالحة عند المسلم؛ وذلك أن الدين كله عقيدة وشريعة وأخلاقًا وآدابًا تنتظمه منظومة واحدة، هي منظومة العبودية والخضوع لله رب العالمين.

وهذا هو ما يؤكده النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان**

يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)[1].

فنراه صلى الله عليه وسلم يربط ربطًا وثيقًا بين الأخلاق والإيمان بالله واليوم الآخر، ومن ثم إذا ما انهارت العقيدة -وهي الحصن الحصين للإسلام، وهي واسطة عقد نظامه-؛ لا شك ينهار هذا البناء، وينفرط عقد هذا النظام، ومن ثم جهد أعداء الإسلام على إحداث خلل كبير في أمر العقيدة عند كثير من الناس، في كثير من المجتمعات الإسلامية؛ مما يؤدي تلقائيًا إلى تردي أخلاق هؤلاء الذين أصابهم الخلل في عقيدتهم، ومن ثم ينهار بنيان المجتمع بكامله.

وليس عجبًا أن يربط الله تعالى في سورة من قصار السور بين الوصف بالتكذيب بالدين، وبين القسوة على اليتيم والمسكين، ليلفتنا إلى أثر العقيدة في سلامة الخلق.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٦-٧].

إذن فالإيمان بالدين، وهو الحساب والجزاء، وإكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وتقديم الماعون لأهله.. كل ذلك تشمله منظومة واحدة متكاملة، ويرجع إلى أصل واحد، وهو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

ولذلك تجد أغلب الأوامر والنواهي التي تدعو إلى جميل الخصال، وتنهى عن رذيل الأحوال، تصدر كلها بنداء الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وذلك كما في سورة الحجرات على سبيل المثال.

وقد أصبحت أغلب المجتمعات اليوم -بفعل دفع أعداء الإسلام بكثير من صور الإفساد الأخلاقي- تعج بمظاهر الفظاظة والغلظة والقساوة وسوء الأخلاق، وصار من الأمور المألوفة في شوارع المسلمين وسككهم، ما يؤذي الآذان من السب والقذف والصخب والفحش، وما يؤذي الأعين من مظاهر التبرج والسفور والسكر والعهر والاختلاط المحرم، وكثرة الأذى في سبيل الناس وطرقهم، ورؤية المدمنين من متعاطي الخمور والمخدرات، وما يزكم الأنوف من دخان التبغ وغيره، وما يؤذي الضمائر والأنفس من فساد المعاملات وانتشار الرشوة والربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، وما يدمي القلوب من العقوق وقطع الأرحام وتفشي التدابر والتقاطع بين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ٨/ ١١، رقم ٥٧٨٥.

الأهل والجيران وسائر الإخوان.

كل ذلك يستدعي ضرورة المسارعة للدفع المقابل؛ لإنقاذ مجتمعات المسلمين من براثن ذلك الفساد الخلقي، المؤذن بخراب تلك المجتمعات وانهيارها مما أشاعه أعداؤهم في مجتمعات المسلمين، لا يألونهم خبالًا؛ لأنهم دائمًا يودون ما يعنتهم، ويوقعهم في الموبقات والمهالك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

كما أخبر أن أعظم تلك الأسباب أيضًا هو إفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم، ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم، واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٣. الحرص على التحكم في العباد ومقدرات الشعوب واستحواذ ملذات الحياة الدنيا.

الكافر لا يؤمن بالآخرة؛ ومن ثم فهو لا يطلب إلا الحياة الدنيا، ولا يريد سواها، وفي سبيل ذلك يدافع ويقاتل؛ فقد زينت له بشهواتها وأعراضها الزائلة؛ فتكالب عليها، وقاتل لأجلها، ولم ير لأحد حق فيها سواه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي سبيل تحقيق تلك الشهوات والمآرب الدنيئة يطغى ويستكبر، ويعيث في الأرض فسادًا، والله لا يحب الفساد.

قال سبحانه في المنافقين الذين أظهروا الإيمان، ويبطنون الكفر والعداوة للمؤمنين، ويمالئون عليهم أعداءهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وقال تعالى مبينًا سبب إفساد الكافرين في الأرض، وأنه يرجع إلى طغيانهم واستكبارهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وهؤلاء الكافرون يرون أنه ليس لأحد حق في هذه الحياة الدنيا وطيباتها سواهم، ومن ثم فهم يزاحمون المؤمنين فيها ويدفعونهم عنها، والله تعالى ما أحل هذه الطيبات إلا للمؤمنين؛ ولذا يجعلها خالصة لهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

مجالات الدفع

أولًا: الكفر والإيمان:

لا يزال الصراع والتدافع بين الكفر والإيمان منذ بدء الخليقة مستمرًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك منذ نشأت العداوة بين إبليس وآدم، وقد حذر الله آدم وزوجه، ومن ثم ذريتهما من بعدهما من عداوة إبليس؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٣].

فمن ثم تأسست العداوة في الأرض بين إبليس وذريته، ومن أعانه من شياطين الإنس والجن من جهة، وبين آدم وذريته ممن أطاع الله تعالى، واتبع سبيل المرسلين من جهة

أخرى.

لا جرم من أن يعين إبليس وجنده أهل الكفر والضلال من بني آدم المفسدين في الأرض، من الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، من نعتهم الله بشياطين الإنس فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ومن ثم صار الناس حزبين لا ثالث لهما: حزب الله، وحزب الشيطان، وقد وصف الله حال الفريقين بقوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ١٩-٢٢].

ودارت رحى الحرب بين الفريقين؛ فاقتتلوا حيث تدافع الفريقان و﴿اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأخبر تعالى أن قتال هؤلاء الأعداء الكافرين لا يزال مستمرًا متجددًا إلى يوم القيامة، كما أخبر عن غاية هؤلاء من قتالهم المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

كما أيأس الله تعالى المؤمنين من أن يبلغوا رضا أعدائهم، أو أن يسالموهم؛ فيكفوا دفعهم وأذاهم الدائم لهم؛ فهم لا يرضون عن المؤمنين أبدًا حتى يتبعوا ملتهم الباطلة، ولا يزالون يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا

﴿النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثانيًا: الخير والشر:

لقد خلق الله الإنسان، وركب فيه نوازع الخير والشر، وخيره بين اتباع أي منها؛ ولكنه رتب الفلاح والنجاح على تزكية المرء لنفسه إذا عمل بالخير ودعا إليه، ورتب الخيبة والخسران على تدنيس النفس بالشر إذا عمل به ودعا إليه؛ فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وكما يتصارع ويتدافع أهل الإيمان وأهل الكفر منذ بداية الخليقة؛ يتصارع كذلك دعاة الخير ودعاة الشر كذلك، ودعاة الخير الحقيقيون هم المؤمنون، كما أن دعاة الشر هم الكافرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

فالمؤمنون المصلون هم أهل الخير ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وأنهم ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، وأنهم ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

والكافرون المكذبون بيوم الدين بعكس ذلك، هم أهل الشر ترى أحدهم ﴿هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣].

ومن ثم توعد الله أهل الخير المؤمنين المصلين أن يتصفوا ببعض صفات أهل الشر المكذبين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ولما كان المؤمنون هم أهل الخير؛ دعاهم الله تعالى ليس إلى مجرد فعله؛ بل أمرهم مع ذلك بدعوة الناس إليه، فقال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ

﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالمؤمنون هم دعاة الخير الحقيقيون، أو هم الجديرون بذلك؛ لأن الإيمان بالله تعالى يأخذ بيد العبد إلى الخير كله، ولا يزال المرء على خصلة من الخير؛ حتى تأخذ بناصيته إلى البر كله، ولا يزال المرء على خصلة من الشر؛ حتى تأخذ بناصيته إلى الشر كله.

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)**[(١)].

ويتصارع الفريقان أهل الخير وأهل الشر في إرادة الخير أو الشر بالناس، ونشره بينهم؛ فالمؤمنون أهل الخير ممتثلون أمر ربهم لهم في ذلك بدعوة الناس إلى الخير، وحثهم عليه ونشره بينهم، والكافرون أهل الشر عبيد الشهوات، همهم ورغبتهم أن يحولوا المجتمعات إلى مجتمعات تائهة، ينسلخ فيها الأفراد حتى من ثوب الإنسانية؛ لينحطوا إلى درك من البهيمية، مطلق من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، متدثرين بشعارات خداعة من الحرية والتمدن والتحضر وغيرها من شعاراتهم الكاذبة، والتي هي في حقيقتها ليست سوى أسماء أخرى للشهوة المرادة في الآية[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وهم لا يريدون سوى إشاعة الفواحش والفجور في مجتمع المؤمنين بشتى الصور والوسائل؛ ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وانظر كيف صور سبحانه حال عباد الرحمن، وأثنى عليهم، ووعدهم على ذلك الجنة، بادئًا في الثناء عليهم بحسن أخلاقهم مع الخلق، وجميل أوصافهم في معاملاتهم وسلوكهم، مقارنًا بينهم وبين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/ ٢٥، رقم ٦٠٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ٤/ ٢٠١٣، رقم ٢٦٠٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٣١.

أهل الشر الكافرين، الذين أبوا السجود لأرحم الراحمين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٠- ٧٦].

فعباد الرحمن هم خير الناس للناس، هينون لينون، بعيدون عن كل لغو ولغط وجدال وشقاق، قال سبحانه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويتصارع الفريقان إلى يوم القيامة: فريق يحب الخير للناس ويدعو إليه، وهم الرسل وأتباع الرسل، وفريق يريد الشر للناس ويدعو إليه، وهم أولياء الشيطان وأعداء الرسل.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ثالثًا: الحق والباطل:

قضى الله بحكمته وعدله أن يخلق الناس فريقين: أهل حق، وأهل باطل، أهل هدى، وأصحاب ضلالة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

والقضية محسومة، أهل الإيمان هم أهل الحق؛ ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢].

والذين كفروا هم أهل الباطل، وقد كتب الله الفوز والسعادة وصلاح البال للمؤمنين أهل الحق، وكتب الخزي والضلال وحبوط الأعمال للباطل وأهله، وأوجب على المؤمنين مدافعتهم بكل ما أوتوا من قوة؛ حتى إذا لقوهم في الحرب فليس لهم إلا القتال وضرب الرقاب، ثم شد الوثاق.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ

مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ١-٩].

والحق هو سلاح المؤمنين في دعوتهم إلى الله، كما أن الباطل هو حجة الكافرين الداحضة، يجادلون بها؛ ليدحضوا الحق.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤-٥].

هكذا قضت سنته سبحانه أن يتصارع الحق والباطل، ويتدافعان إلى يوم القيامة، ولكنه كتب الغلبة والنصر والبقاء للحق وأهله، وضرب لكل مثلًا؛ فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل لا يبقى ولا يدوم، بل الحق هو الذي يدفعه ويدمغه ويقضي عليه، فهو لا يثبت أمام الحق، وصدق سبحانه القائل: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩].

سنة ثابتة إذًا أن تكون الغلبة للحق وأهله، وأن يندحر الباطل وأهله، ولم لا، و﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢].

و﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ و﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؟!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

ومن ثم فلا بد من خسران الباطل وأهله، ولو كان ذلك في الجولة الأخيرة؛ فهم خاسرون لا محالة، بهذا قضت سنة الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

رابعًا: الظلم والعدل:

صراع الظلم والعدل ليس مقصورًا على صراع الكافرين مع أهل الإيمان -وإن كانوا هم أكثر الناس ظلمًا-، وإنما قد يقع من بعض الفسقة والمبتدعة والعصاة من أهل الإيمان.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام؛ لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع»(١).

والحق أن الظلم مذموم من جميع الخلق -مؤمنهم وكافرهم-، بل يلحق المؤمن بذلك أعظم الذم؛ لأن الإيمان ينافي الظلم ويناقضه؛ إذ مبناه على الحق والعدل، و«جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم»(٢).

وإذا دب الظلم في ملك؛ أفسده وأذهبه، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق -وإن لم تشترك في إثم-، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، فالباغي يصرع في الدنيا -وإن كان مغفورًا له مرحومًا في الآخرة-، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل؛ قامت -وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق-، ومتى لم تقم بعدل؛ لم تقم -وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة-، فالنفس فيها داعية الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له، والتعدي عليه في حقه»(٣).

وليس معنى ذلك أن يخرج الناس على حكامهم إذا ما أقاموا فيهم كتاب الله وسنة رسوله، أو دون نظر في العواقب، وما يتبع ذلك من المفاسد العظام، «وقد قيل: ستون سنةً بإمامٍ ظالمٍ، خيرٌ من ليلةٍ واحدةٍ بلا إمامٍ»(٤).

ولما كان الظلم والبغي قد يقع من أهل الإيمان؛ حتى يحصل الاقتتال بين الطائفتين من المؤمنين أمر الله تعالى أهل العدل والإصلاح دفع هذا الظلم والبغي، بالعمل على الإصلاح بين الطائفتين، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ [الحجرات: ٩]؛ فقد

(١) الحيدة، عبد العزيز الكناني ص ١٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٨٦.
(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ٢٩.
(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥١٨.

أمر بقتال ﴿ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ﴾؛ وجب الإصلاح ﴿بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ والقسط.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد تكلم العلماء في أحكام دفع البغي ومقاتلة البغاة تفصيلًا في كتب الأحكام -وليس هذا مقامه-، وتكلموا في حكم دفع الصائل الباغي، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأما دفع الصائل على النفس الذي يريد قتل المعصوم بغير حق إذا لم يكن القتال في فتنة فهل يجب دفعه؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد: أن الممكن ليس بفاعل، بل ولو أراد مريد قتله؛ وجب عليه ذلك، كما يجب عليه الأكل من الميتة عند المخمصة، فكما يحرم عليه قتل نفسه؛ يجب عليه فعل ما لا تبقى النفس إلا به من طعام وشراب ودفع ضرر بلباس ونحو ذلك، فإذا أمكنه الهرب ونحوه؛ وجب عليه ذلك، وأما إذا كان دفع الصائل عن نفسه يحتاج إلى قتال الصائل فهنا فيه محذور آخر -وإن كان جائزًا- وهو قتل الآخر؛ فلهذا خرج الخلاف في وجوب دفعه عن نفسه»[1].

(١) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٣٢٧.

وقد أمر الحق سبحانه بإقامة العدل والحق والقسط والميزان في كل شيء؛ فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد أمر بذلك الرسل أقوامهم.

قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقد توعد المطففين في الكيل والميزان

ظلمًا وبغيًا؛ ليأخذوا ما ليس له بحق، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ١-١١].

فتوعدهم ربهم بعذاب عظيم على ذلك الظلم المبين، وأتبع ذلك ببيان جزاء الذين يكذبون بيوم الدين، لما كانوا هم أكثر الناس ظلمًا لغيرهم.

خامسًا: الفساد والصلاح:

أمر الله عباده بطاعته التي فيها صلاح دنياهم وآخرتهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالعمل بغير شريعته، فقال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وامتدح الذين يصلحون، وينهون عن الفساد في الأرض فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

التدافع والصراع بين الفساد والصلاح صورة من صور سنة التدافع، وهو ليس مقصورًا على التدافع بين الكافرين والمؤمنين؛ إذ إن صدور الفساد ليس مقصورًا على الكافرين؛ بل قد يقع من بعض المسلمين وممن يندس فيهم من المنافقين كذلك، وإن كان أكثر ما يقع إنما يقع من الكافرين ومن تولاهم من المنافقين.

وقضت سنة الله الكونية والشرعية أن يقع التدافع بين أنبياء الله ورسله وأتباعهم من جهة، وبين أقوامهم من الكافرين المعاندين المحادين لله ورسله من جهة أخرى، وهذا ما حكاه لنا القرآن عن سائر رسل الله وأنبيائه.

قال تعالى عن التدافع بين شعيب وقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٤-٨٨].

فقد أمرهم بترك الإفساد في الأرض بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، ونهاهم أن يعيثوا في الأرض مفسدين، وبين لهم أنه ما يريد بذلك إلا الإصلاح بفعل ما فيه نفعهم وصلاح أمرهم، لكنهم أبوا إلا شقاقه ومدافعته عن دعوته، وتبليغ رسالة ربه؛ فحذرهم مغبة ذلك الشقاق بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

ولكن ما زادهم ذلك إلا شقاقًا وتعنتًا ومدافعة لشعيب عن تبليغ رسالة ربه، وتهديده بالرجم لولا رهطه: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

فذكرهم شعيب بالله، وقد نسوه واتخذوه وراءهم ظهريًا، وبين لهم أنه ثابت على دعوته غير آبه بتهديدهم، متوكل على ربه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٢-٩٣].

وقد فصل الله تعالى فسادهم وإفسادهم في الأرض وصدهم من آمن عن سبيل الله في سورة الأعراف فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

ومن أعظم الناس فسادًا المنافقون، وقد أطال القرآن في بيان أحوالهم وفسادهم في عديد من سوره، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٢].

وأمر الله نبيه والمؤمنين بدفعهم بما يناسب حال الدولة الإسلامية، وواقع المسلمين من القوة والضعف وغير ذلك، ففي بداية العهد المدني أمر الله تعالى رسوله بدفع أذاهم بالإعراض عنهم تارة، أو بالإعراض عنهم مع الموعظة لهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وقد اختلف الحال بعد استقرار دولة المسلمين وظهورها في المدينة آخر الأمر؛ فجاء الأمر بمدافعتهم بقتالهم وجهادهم جهادًا كبيرًا بكل وسائل الدفع والمجاهدة، وجعل ذلك سنة ماضية إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

وسائل الدفع

تختلف صور الدفع ووسائله بين المؤمنين والكافرين والمنافقين؛ فيعتمد الكافرون والمنافقون كل وسيلة من الوسائل غير متقيدين لله بطاعة ولا شريعة؛ فيستبيحون إثارة الفتن والقلاقل، وإثارة الشهوات، وإشاعة الفواحش، ورذيل الأخلاق، واستباحة القتل والدماء وصنوف التعذيب بغير جريرة من المؤمنين مما فصله القرآن في مواضع كثيرة.

أما المؤمنون فمتقيدون بشرع ربهم، منطلقون في كل أعمالهم من قاعدة إيمانهم، فلا فحش ولا غدر ولا رذيلة، ولا يأتون إلا ما شرع الله وشرع رسوله صلى الله عليه وسلم.

أولًا: وسائل الدفع لدى الكافرين والمنافقين:

١. الدفع بإثارة اللغط والتشويش.

إثارة اللغط والتشويش على الدعوة الإسلامية هي دأب الكافرين والمنافقين في كل زمان ومكان، إما بالتشويش باللغو الساذج المتعمد قديمًا، وإما بالتشويش باللغو الذي تفنن فيه أعداء الإسلام في تقديمه في صور عديدة حديثًا للتشويش على صوت الحق، إما في صورة الفن الهابط الرخيص الذي يؤجج الشهوات، أو البرامج المشككة في الدين التي تثير الشبهات في صور ووسائل عديدة، يتفنن أعداء الإسلام في اختراعها يومًا بعد يوم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهم في ذلك يحاولون عبثًا ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢- ٣٣].

ونستطيع القول: إن أعداء الإسلام قد كشروا عن أنيابهم بكل صور العداوة للإسلام وأهله منذ اللحظة الأولى التي انطلقت فيها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

«قال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيًا، حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. فخرج هو وأصحابه»[(١)].

كانت هذه الصيحة من النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة الإعلان عن هذه الدعوة، فبدأ ضعفاء الناس يتسللون إليها، ومنذ ذلك اليوم أعلنت العداوة السافرة بين حزب

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٧.

الموحدين وحزب المشركين، فعملت قريش على مجابهة هذه الدعوة بأساليب شتى، منها:

- السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.
- إثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.
- الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن.
- اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم.
- الاعتداءات على النبي صلى الله عليه وسلم.
- مساومة النبي صلى الله عليه وسلم على ترك دعوته.
- مقاطعتهم للمسلمين ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب[1].

٢. الدفع بإثارة الفتن والشبهات.

وهذا هو لون من ألوان الدفع بالمكر والخديعة، وهو ما يهدف إليه الكافرون ومنافقو أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام نفاقًا وابتغاء الفتنة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٤].

«ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار، ثم اكفروا به آخره؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منا»[2].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فهذه الآية وما بعدها من الآيات إنما نزلت لتعليم المؤمنين، كيف يحاورون الطاعنين على الدين، وكيف يردون شبهاتهم، حينما استغلوا حادث تحويل القبلة لتشكيك المسلمين في عقيدتهم.

قال الإمام ابن كثير: «قيل: المراد بالسفهاء هاهنا مشركو العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم»[3].

٣. الدفع بإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش.

(١) انظر: الرحيق المختوم ص ١٠٠-١٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٣.

من أخبث صور الدفع لدى الكافرين الدفع بإفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٤. الدفع بإسماع المؤمنين الأذى والطعن فيهم.

وهذه أيضًا صورة من صور الدفع التي حكاها القرآن عن المشركين مما مر به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم خير تطبيق لحكمة الدعوة في دفع هذا الأمر؛ امتثالًا لتوجيهات القرآن الكريم في ذلك، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينالهم الأذى من المشركين في بادئ الأمر، وكانت التوجيهات القرآنية تأمرهم بدفع ذلك بالعفو والصفح بما يناسب تلك المرحلة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن ذلك الأذى اللفظي الذي أسمعه الكافرون والمنافقون للمؤمنين فيما لقيه أتباع الرسل من أقوامهم في كل زمان ومكان، نعتهم إياهم بالسفهاء أو الأراذل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٣-١٤].

ففي هذه الآيات يحكي لنا القرآن الكريم ما يدور بين المؤمنين والمنافقين من حوارات حول الإيمان الحقيقي المبني على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ولزوم منهجه، وهو ما عليه المؤمنون الصادقون، كما يحكي لنا كذلك جواب هؤلاء المنافقين للمؤمنين، وما يشتمل عليه من سخرية واستهزاء وأنفة من اتباع ما عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيل المؤمنين.

«وإنما عنى المنافقون بقيلهم: أنؤمن كما آمن السفهاء -إذ دعوا إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث، فقيل لهم: آمنوا كما

آمن الناس- أصحاب محمدٍ وأتباعه من المؤمنين المصدقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديق بالله، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفي كتابه، وباليوم الآخر؛ فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الجهل، ونصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام؟»[1].

بل زادوا على ذلك بنعت الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالسحر والجنون والضلالة والسفاهة وغير ذلك، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

بل أعظم من ذلك تطاولوا على عرض النبي صلى الله عليه وسلم إفكًا وزورًا، كل ذلك لإضعاف المؤمنين، وتوهين عزائمهم.

٥. الدفع بالسخرية من المؤمنين.

من وسائل الدفع لدى الكافرين التي يريدون بها إضعاف عزائم المؤمنين السخرية الدائمة من المؤمنين، ومما هم عليه من الحق والهدى؛ بل السخرية من رموزهم وقادتهم، فلا يزال الكافرون قديمًا وحديثًا يسخرون من الأنبياء والصالحين، ويصورونهم في صورة قبيحة منكرة مخالفة لحقيقتهم الناصعة؛ حتى صار ذلك سنة ثابتة مع جميع المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠-١١].

وقد كان هذا دأب المنافقين كذلك.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقديمًا سخر الكافرون من نوح عليه السلام، وحكى القرآن سخريتهم هذه فقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

ومن ذلك استهزاء بني إسرائيل بنبيهم موسى عليه السلام فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فالحقيقة أنهم هم الذين يستهزئون بنبي الله عليه السلام؛ إذ ينسبون إليه الاستهزاء بهم فيما يبلغ من كلام ربه.

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٣.

ومن حوار الاستخفاف: استخفاف فرعون بقومه في حواره إياهم وتعنته فيما اشترطه في نبي الله موسى عليه السلام من التحلي بمظاهر الزخرف والزينة الفارغة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

وقد سخر المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٢-١٧].

وأمثلته كثيرة في القرآن، منها ما حكاه القرآن من حوار المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۙ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧-٨].

قال الألوسي: «أخرجوا قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [سبأ:٧] مخرج الظن والسخرية متجاهلين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقبوه بقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أضربوا عنه إلى ما هو أبلغ منه ترقيًا، من الأهون إلى الأغلظ من نسبة الجنون إليه، وحاشاه صلى الله عليه وسلم، فكأنهم قالوا: دعوا حديث الافتراء؛ فإن ههنا ما هو أطم منه؛ لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب»[1].

ولا تزال محاولات الاستهزاء والسخرية بالأنبياء والرسل ورموز الدين الحق مستمرة إلى يومنا هذا، وسوف تستمر إلى قيام الساعة؛ لأنها من صور تلك السنة الماضية سنة التدافع بين الحق والباطل.

٦. الدفع بالمبالغة في العدة المادية.

يعتمد الكافرون والمنافقون في دفعهم للمؤمنين على الأسباب المادية البحتة؛ وذلك أمر بدهي؛ حيث إنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ ولأنهم لا ينتظرون عونًا ولا مددًا من الله تعالى؛ تراهم يبالغون في

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٢٦٠.

إعداد العدة المادية إلى أبعد الحدود؛ وقد أخبر الله عن المنافقين الذين يبطنون الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٨].

٧. الدفع بالمبالغة في العدة البشرية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على الأسباب المادية: المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية -مهما كانت قوتهم وسلطانهم-؛ لما يسيطر عليهم من هلع وفزع وحذر شديد.

قال تعالى عن فرعون وحشده السحرة لمواجهة موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

«يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ من يحشر له جنده وقومه»[1].

ولأن أعداء الحق يعتمدون في دفعهم على الأسباب المادية وقوة العدد؛ ونظرًا لكثرة الباطل وأهله؛ فهم يغترون بتلك الكثرة، ويعولون عليها، ولكن: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥].

ومع هذا الحشد والجمع من الكافرين، لا يسع المؤمنين إلا الاعتصام بالله، والاحتماء به، واللجوء إليه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٨. الدفع بالتحالفات السياسية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية: عقد التحالفات السياسية لمدافعة الإسلام وأهله؛ فيجمعون لذلك أحزابهم وحلفاءهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٠.

٩-١١].

«عن ابن إسحاق، قال: ثني يزيد بن رومان، في قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح: الملائكة»[(١)].

٩. الدفع بالمقاطعة الاقتصادية.

من وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين ما حكته كتب السيرة من المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وحصارهم في شعب أبي طالب؛ وذلك أنه: «حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة آذاه قومه وهموا به، فقامت بنو هاشم وبنو المطلب؛ مسلمهم وكافرهم، دونه، وأبوا أن يسلموه، فلما عرفت قريشٌ أن لا سبيل إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم.

وعمد أبو طالبٍ فأدخلهم الشعب شعب أبي طالبٍ في ناحيةٍ من مكة، وأقامت قريشٌ على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطلب سنتين أو ثلاثًا، حتى جهدوا جهدًا شديدًا، ثم إن الله تعالى برحمته أرسل على صحيفة قريشٍ الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر بذلك رسوله، وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالبٍ، واستنصر به أبو طالبٍ على قومه»[(٢)].

وواضح من هذه المقاطعة أن هدفها هو إرغام المسلمين على التراجع عن دينهم وعقيدتهم، أو على الأقل إضعافهم، ومحاصرتهم؛ لئلا ينتشر دينهم؛ لما رأوا من تأثير الدعوة الإسلامية على القلوب والعقول والفطر السليمة.

وهذا هو ما يقوم به أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ لتحقيق تلك الأهداف الخبيثة.

١٠. الدفع بالمقاطعة الاجتماعية.

لم تكن مقاطعة الكافرين للمسلمين في شعب أبي طالب مجرد مقاطعة اقتصادية فقط، بل كانت مقاطعة اجتماعية شاملة شملت كذلك ألا ينكحوهم أو ينكحوا منهم كذلك؛ وذلك لما يعلمون من تأثير ذلك في زيادة عزلة المسلمين وحصارهم.

بل أعظم من ذلك وقعت المقاطعة الاجتماعية، التي تخطت مجرد المقاطعة

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢١٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٩٤، وأصله في صحيح البخاري رقم ١٥١٣، وصحيح مسلم رقم ١٣١٤، عن أبي هريرة.

إلى الإيذاء والاضطهاد الديني في محيط الأسرة؛ حيث يشير القرآن إلى مجاهدة الآباء أبناءهم الذين أسلموا لردهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

١١. الدفع بقتال المؤمنين وإهلاكهم والقضاء عليهم.

من أعظم وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين هو القتال، والحق أن قتال الكافرين للمؤمنين ليس مجرد وسيلة، بل هو وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ فهو وسيلة من أعظم وسائلهم لرد المؤمنين عن دينهم، وفتنتهم في عقيدتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهم لا يكتفون في ذلك بمجرد القتال والقتل؛ بل يتفننون في التعذيب بالمؤمنين، وإهلاكهم والقضاء عليهم بشتى الصور، والتاريخ قديمًا وحديثًا خير شاهد على ذلك، وقد سجل القرآن والسنة فتنة الكافرين للمؤمنين بالإحراق في الأخاديد في سورة عظيمة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هي سورة الأخدود (البروج).

وقد سجلت كتب التاريخ جرائم ومجازر التتار والصليبيين واليهود للمسلمين على مر التاريخ إلى يومنا هذا، وليس ما يحدث للمسلمين في بورما ببعيد.

ثانيًا: وسائل الدفع لدى المؤمنين:

١. لزوم الإيمان والتقوى.

٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٣. الاجتماع ونبذ الفرقة.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثمة آيات عظيمة في سورة آل عمران قد جمعت تلك الوسائل كلها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٥].

والمتأمل في هذه الآيات يجد أن الله تعالى قد بين فيها أهم سبل الدفع ووسائله وأسسه العظيمة التي ينبغي أن يقوم عليها، وهي:

١. لزوم الإيمان والتقوى والمحافظة على الإسلام والتمسك به والموت عليه.
٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بالتمسك بهما وعدم الحيدة عنهما إلى ما سواهما من سبل البدعة والضلالة.
٣. الاجتماع ونبذ الفرقة؛ وذلك بالاجتماع حول أصول الدين وثوابته، التي أسسها الكتاب والسنة؛ ولذا جعل الله تعالى التمسك بكتابه، وسنة نبيه هما مناط الاجتماع والاعتصام.
٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أعظم برهان على صدق الاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة، ولا ينجع ولا يأتي بأثره ويكون له قوة في الدفع، ونكاية في العدو، إلا باجتماع الكلمة؛ لذا تأخر بعد الوصية بها.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

ومن المعلوم أن تغيير الفساد والمنكر أصل عظيم من أصول هذا الدين له أثره الماضي في صلاح المجتمع، ودفع صور الفساد التي يبثها أعداء الإسلام في مجتمعاتنا؛ ولذا فهو أحد أربعة أسس يقوم عليها بناء المجتمع المسلم.

ونستطيع أن نتبين ذلك إذا تأملنا سورة قصيرة من سور القرآن كسورة العصر؛ حيث تبين أن معالم الفلاح والنجاح للفرد والمجتمع المسلم إنما ترجع إلى أربعة أركان أساسية، هي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

والتواصي بالحق إنما هو لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو عماد التغيير والإصلاح، وهو قرين الإيمان بالله تعالى، ودليل عليه؛ ولذا جعله النبي صلى الله عليه وسلم في علاقة مطردة مع

الإيمان بالله تعالى قوة وضعفًا؛ فجعل قوته من قوة الإيمان وضعفه من ضعف الإيمان.(١)

ولعظم هذا الأمر ولأهميته وخطورته؛ قدمه الله تعالى في وصف هذه الأمة على وصفهم بالإيمان بالله تعالى؛ وذلك لما ناط الله تعالى بهذه الأمة من مهمة التغيير والإصلاح ودفع الفساد والمنكر في العالم كافة، وأعظم المنكر كفر بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فجعل الله تعالى خيرية الأمة منوطة بالقيام بهذا الواجب العظيم، الذي هو أساس دفع كل فساد وظلم، ولعل هذه الآية توضح أن المراد بمن في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ في الآية الأخرى ليس هو التبعيض، كما ذهب إليه أحد الفريقين في تفسير الآية.

ولذا فإن البحث يرجح أن تكون مهمة الدفع والإصلاح بوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطاب موجه لكل مسلم بالشروط الواجب مراعاتها في الأمر والنهي، بحسب ما يملك كل امرئ من العلم والحكمة، وعلى قدر ما يستطيع، وليس مقتصرًا على العلماء والمحتسبين المتصبين لذلك؛ ففي مسائل الدين كالصلاة والصيام ما هو معلوم بالضرورة لكل مسلم، ويستطيع أن يأمر بذلك من ولي عليه من أهله، أو رعيته بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن لم يستطع ذلك لعيٍ أو عجز أو ضعف أو جهل؛ حث غيره من القادرين على ذلك وأعانهم عليه.

وذلك على أرجح القولين في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على خطورة إهمال تغيير المنكر فيقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود وغيره بإسناده: «عن إسماعيل، عن قيسٍ، قال: قال أبو بكرٍ: بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال: عن خالدٍ، وإنا سمعنا النبي صلى

(١) وذلك في حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).
أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.

الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ)، وقال عمرٌو: عن هشيمٍ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من قومٍ يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ)، قال أبو داود: ورواه كما قال خالدٌ أبو أسامة: وجماعةٌ، وقال شعبة فيه: (ما من قومٍ يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمله)»[1].

٥. الدفع بالتي هي أحسن.

لعل من أجمل ما يتميز به أهل الإيمان في دفعهم للباطل وأهله أنهم يدفعون بالتي هي أحسن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ فما أمكن دفعه من الفساد بأخف الوسائل؛ لم يجز تعد هذه الوسيلة إلى ما هو أعظم منها فتكًا وإهلاكًا، كما هو مشاهد من فعل أهل الباطل من إسرافهم في استعمال القوة المفرطة والميل إلى الإبادة العامة للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

وذلك في حال السلم، أما في حال الحرب؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن قتل الطفل أو المرأة أو الشيخ الكبير أو من لا يقاتلنا:

عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيشٍ، أو سريةٍ، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ -أو خلالٍ- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٧٣.

أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)[1].

عن ابن عباسٍ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال: **(اخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع)**[2].

فنرى كيف ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغدر، والتشفي بالأعداء، والتمثيل بجثثهم، وعن قتال من لا يقاتل من الضعفاء كالنساء والأطفال والعجزة، وانظر كيف يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الدفع بالقتال آخر الدواء، وكأنه لا يقدم عليه إلا مضطرًا؛ فأين ذلك مما يشوه به أعداء الإسلام صورة النبي صلى الله عليه وسلم وصورة الإسلام والمسلمين.

فإن لم يكن بد من القتال والقتل؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن التعذيب والتمثيل، وأمر بإحسان القتل حتى في الحيوان، فما بالنا بالإنسان الذي كرمه الله على العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

بل حث على دفع باطلهم العقدي والفكري بالجدال بالتي هي أحسن كذلك، حيث ينبني منهج الحوار في الإسلام على أسس أخلاقية قويمة، تلتزم الصدق والعدل والإنصاف، وتحترم الآخر، وتعطيه حقوقه في الحوار كاملة، وتعترف بإنسانيته، وتجعله هو والطرف الآخر على حدٍ سواء، ولا تبيح سبه، أو إهانته أو السخرية منه -إلا أن يبدأ هو بذلك-، وترغب في العفو عن إساءته، وعدم مقابلة السيئة بمثلها؛ بل ترغب في دفعها بالتي هي أحسن، مع التزام كل ما هو متقرر من آداب الحديث والحوار والمجادلة.

وجماع ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمراء على البعوث، رقم ١٧٣١، ٣/ ١٣٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤٦١، رقم ٢٧٢٨.
وحسنه المحقق.

رسالة ربك»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

«قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا»[2].

فالصواب أن جدال أهل الكتاب وغيرهم بالتي هي أحسن ثابت ومحكم غير منسوخ، وهو يقتضي حسن معاملتهم؛ بل والعفو عن أذاهم، وحسن الأدب في حوارهم، وعدم تكذيبهم فيما لم يرد في شرعنا ما يشهد لاعتباره أو إلغائه، وإن كنا لا نعتقد بالضرورة صدقه، ولكن الإنصاف يقتضي عدم تكذيبهم فيه كذلك، وهذا غاية الأدب والإنصاف في المحاورة.

فمقتضى قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ التزام كل خلق حسن جميل مع المحاور، واجتناب كل خلق رذيل، وهذا مع كل محاور -وقيد أهل الكتاب هنا لا مفهوم له- بعموم دلالة الآية الأولى؛ فالمسلم أولى بلا خلاف من الكتابي بإحسان معاملته، وخصوصية الكتابي في إحسان محاورته لا تنفي أحقية غيره من الكفار والمشركين والملحدين في إحسان حوارهم ومجادلتهم.

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٣.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

«قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله -إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن- إلى مأمنه، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة، لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»[(١)].

فأوجب إجارته ممن يتعرض له بسوء، وتأمينه حتى يستطيع أن يسمع ويعقل كلام الله بأمان تام، بل أوجب تأمينه -بعد إسماعه ومحاورته- إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه، ويلحق بديار أهله من المشركين.

٦. الدفع عن طريق رد الشبه وكشف حقيقة الباطل عن طريق وسائل الإعلام المختلفة والحوار والمحاجة والمناظرة.

معرفة سبيل المجرمين بهدف الحذر منها، وكشفها وبيانها وإبطالها من أوجب الواجبات لمن انتصب للدفع عن الإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

«قال: لتعرفها»[(٢)].

وإذا كانت استبانة سبيل المجرمين من واجبات الدين، ومن مهمات الدفع؛ وجب على المسلمين الإفادة من كل وسيلة صالحة لذلك، سواء عن طريق الكلمة المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية، سواء بكتاب أو جريدة أو مجلة أو إذاعات وفضائيات ومواقع الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وغير ذلك من الوسائل الإعلامية العديدة التي يعج بها العصر الحديث، وبرع أعداء الإسلام في استخدامها والإفادة منها؛ لمدافعة الدين الحق وأهله.

وقد بينا فيما سبق في التعريف بمصطلح الدفع والمصطلحات القريبة، ما هو قريب

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٣٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٨١.

من مصطلح الدفع، كالحوار والمجادلة والمحاجة والمناظرة، وذكرنا الفروق بينها، وبعض ما يستدل به على ذلك من كتاب الله تعالى.

والمقصود هنا بيان أن هذه الوسائل هي من وسائل الدفع المهمة، بل لعلها تكون هي وسيلة الدفع الوحيدة المتاحة حينما تعجز الآلة العسكرية؛ لضعف الإمكانات، أو لعدم تهيؤ الظروف لها.

وقد امتدح القرآن الشعراء الذين ينتصرون بشعرهم لدين الله تعالى؛ حيث استثناهم من الذم الذي ألحقه بالشعراء، حيث نعتهم بالغواية والضلال والإضلال، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، أي: انتصروا لدينهم وعقيدتهم وأعراض المسلمين بشعرهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونه به نضح النبل)**[1].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ينافح، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)**[2].

٧. الأخذ بما أمكن من أسباب القوة البشرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

مما لا شك فيه أن الأخذ بأسباب القوة المختلفة، لا سيما القوة العسكرية من أهم آلات الدفع في معركة الإسلام مع قوى الشر المختلفة، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن كثيرًا من صور الانحراف الفكري لدى كثير من مفكري المسلمين إنما يرجع سببه إلى الهزيمة النفسية، التي ترجع إلى انبهارهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٥/١٤٧، رقم ٢٧١٧٤.
وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر رقم ٢٨٤٦.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٦٥.

بالقوة المادية والعسكرية التي عليها أعداء الإسلام.

وقد أمرنا الله تعالى أن نأخذ بكل ما نستطيعه، ويمكن أن تصل إليه أيدينا من وسائل القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)**[(١)].

والقوة تشمل القوة المادية، والقوة العسكرية، وسائر أنواع القوة؛ لعدم الدليل على التقييد بنوع دون آخر.

٨. التحالفات السياسية.

لا يستطيع المسلمون مدافعة أعدائهم على قوتهم واجتماعهم إلا بتحالفهم واجتماعهم، وموالاة بعضهم بعضًا؛ فقد أوجب الله على أهل الإيمان الموالاة في الدين والاجتماع والتآلف والتحالف عليه، ونهاهم عن التفرق والتخالف.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

وهيجهم على فعل هذه الولاية؛ بحرص أعدائهم عليها فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كذلك يجوز لهم بحسب المصلحة عقد المعاهدات مع غيرهم، بحسب ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم يهود المدينة[(٢)].

٩. القتال.

القتال كما هو معلوم من أعظم وسائل الدفع، وقد أخر الله تشريع القتال كوسيلة للدفع من المسلمين لأعدائهم، وأمر قبل ذلك بالعفو والصفح.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

والآيات في ذلك كثيرة، ثم نسخت تلك الآيات بآية السيف، والآيات المشابهة لها، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥١٣، السيرة النبوية، ابن كثير ٢/ ٣٤٢.

[الحج: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورغم قوة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فكان يعمل قاعدة الحكمة والموازنة بين المصالح والمفاسد في التعامل مع المناوئين من اليهود والمنافقين والعرب؛ حتى تستوي قوة الدولة في المدينة، وذلك عملًا بتوجيهات القرآن الكريم حيث أمره بالعفو عن المنافقين في بادئ الأمر والإعراض عنهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

أما بعد تمكن الدولة؛ فقد جاء الأمر بتتبعهم وقتالهم وقطع دابرهم والإغلاظ لهم: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وصالح النبي صلى الله عليه وسلم اليهود، وعاهدهم في بادئ الأمر، ثم لما نقضوا عهدهم؛ قاتلهم وأجلاهم عن المدينة.

وهكذا كان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأسباب القوة؛ حماية للدعوة الإسلامية، وتمكينًا لها، مع العمل بميزان الحكمة في ذلك، وإعمال قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وقد أنزل الله تعالى في سورة الحج الإذن بالدفع بالوسيلة القتالية؛ فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فأذن تعالى للمظلومين في قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة؛ لئلا يستشري الفساد في الأرض، وتنتهك الحرمات، وتضيع معالم الخير، بضراوة أهل الظلم والطغيان، وتعديهم على مواضع العبادة وتخريبها، وذلك عنوان على أقبح صور الإفساد في الأرض؛ لأنه هتك لسياج الحرمات الفردية والجماعية في أقدس مقدساتها[1].

هذا والدعوة الإسلامية مأمورة بإعداد القوة والأخذ بأسبابها في جميع المراحل بحسب الاستطاعة، وهذا لا ينافي الأمر

(١) انظر: القرآن العظيم هداية وإعجاز، محمد صادق عرجون ص٣٠٨.

بالصبر، واحتمال الأذى من أعداء الدعوة في مرحلة البيان؛ حتى تكسب تعاطف الناس، وحتى تتمحص رسالتها للكشف عن الحقيقة والدعوة إلى الحق، وحتى لا يظن بها الظنون بابتغاء نوع من المنافع الدنيوية المادية العاجلة، ومع ذلك فهي مأمورة بالأخذ بأسباب القوة في جميع الأحوال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولكن في مرحلة البيان لا يزيد الأمر عن إعداد القوة دون استخدامها، أو إظهارها، بخلاف مرحلة التمكن، واستقرار الدولة الإسلامية؛ فإنها يشرع لها استخدام القوة للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه أعدائها والتمكين لها، وصد ودحر كل من يقف في سبيل إيصالها إلى الناس، كل ذلك بما لا يتناقض مع قواعد الحكمة، والنظر في ميزان المصالح والمفاسد، وعدم التعجل لكسب أي مكاسب سياسية أو مادية، بل المقياس الأول هو هداية الناس، وتبليغ هذا الدين.

١٠. المقاطعة الاقتصادية.

يتخذ المؤمنون المقاطعة الاقتصادية سلاحًا ووسيلة من أهم وسائل الدفع لأعدائهم، بحسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة؛ فمعلوم أن المال قوام الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

فهذا ثمامة بن أثال -ذلك الصحابي الجليل- بعدما أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة؛ ها هو يسن للمسلمين بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له سنة المقاطعة الاقتصادية للمشركين والكافرين المحاربين للإسلام؛ وذلك أنه: **(لما قدم مكة قال له قائلٌ: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ، حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم)**[1].

١١. المقاطعة الاجتماعية.

من أهم الأسس التي يقوم الدفع عليها عند المؤمنين، براءتهم من الكافرين، ومما هم عليه من اعتقاد فاسد ينبني على الكفر بالله واليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، ٥/ ١٧٠، رقم ٤١١٤.

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فبين الله تعالى أن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يجتمع مع موادة من حاد الله ورسوله، ولو كان من الأصول أو الفروع أو ذوي الأرحام المقربين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآيات في ذلك كثيرة.

عواقب ترك الدفع

أولًا: الخذلان:

إذا ترك المسلمون القيام بواجبهم في الدفاع عن عقيدتهم ومقدساتهم فإنهم بذلك يقضون بالغلبة لأعدائهم على أنفسهم.

لكن لا بد أن يقوموا نصرة لله تعالى ولدينه، لا حمية لجنس أو قومية أو أي شيء غير نصرة دين الله تعالى؛ فحينئذ يأتي نصر الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فإذا نصر المسلمون دينهم وشريعتهم بالقيام بما افترضه الله عليهم والحمية له والذود عنه نصرهم الله، وإلا فالخذلان المبين بأن يكلهم لأنفسهم، وإن خذلهم فمن ذا الذي يملك لهم نصرًا من بعده سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ثانيًا: الذلة والهوان بعلو الكافرين على المؤمنين:

من المعلوم أن قيام المسلمين بواجبهم في الدفع إزاء الكافرين يحقق نوعًا من

توازن القوى؛ فلا يتمادى أهل الكفر في فسادهم وطغيانهم واستضعافهم واستذلالهم للمؤمنين، وإلا يأتي الله بأمره، وتمضي سنته في معاقبة الفاسقين وضرب مذلة الأسر والهوان عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أي: تستطيبونها، يعني: القصور والمنازل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾، فانتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال عطاءٌ: بقضائه، وقال مجاهدٌ ومقاتلٌ: بفتح مكة، وهذا أمر تهديد، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق ولا يرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، الخارجين عن الطاعة»[1].

وعن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)**[2].

فقضت سنة الله تعالى على عباده إذا تركوا ما كلفهم به من الدفع، والجهاد لأعدائهم؛ أن يضرب عليهم ذلًا، لا ينزعه حتى يرجعوا إلى دينهم.

ثالثًا: الاستبدال:

ومن السنن المترتبة على ترك الدفع كذلك استبدال الله تعالى بمن ترك الدفع والجهاد في سبيله من يقيم دينه، ويعطي ولاءه ومحبته للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة ٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٢٣.

نتائج الدفع

أولًا: حرية المعتقد و حرية العبادة:

إن من أهم ثمرات الدفع المأمور به شرعًا استقامة العقيدة وسلامتها، وخلوها من الآفات التي تشوبها من التوجه بالدعاء أو القصد أو الاستعانة إلى غير الله تعالى، أو التحاكم إلى غير شرعه، أو جحود شيء مما أنزل، أو وجود تصورات واعتقادات تخالف العقيدة الصحيحة التي تركنا عليها النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن مجتمعًا مثل هذا تسوده عقيدة إيمانية راسخة، ويقوم على توحيد الله تعالى، وإخلاص القصد له، لا شك أنه مجتمع تتنزل عليه رحمات الله وبركاته، ويستخلف أهله، ويمكنون في الأرض، كما وعد الله تعالى حيث قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فتأمل قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾؛ تعلم أن تلك الجائزة إنما هي ثمرة التوحيد وعاقبته الحميدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن: ١٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فهذه الآيات وأمثالها كثير يدل على العاقبة الحسنة، والثمرة اليانعة للتوحيد، وسلامة الاعتقاد الناتجين عن دفع المؤمنين الكفر والكافرين، وسائر صور الفساد في الأرض.

ثانيًا: حرية العبادة وتحصين أماكنها:

من أعظم الظلم الذي يمارسه أعداء الإسلام -إذا تسلطوا على ديار الإسلام- أن يمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أو يهدموها بالكلية.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا

﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ١١٤].

ولعل من أهم آثار الدفع وعواقبه الحميدة أن يأمن الناس على دينهم وعقيدتهم، ويتمكنوا من أداء عباداتهم وشعائرهم دون خوف أو وجل أن يمنعوا منها، أو تهدم دور عبادتهم؛ إذ إن هذا الدفع لأعدائهم هو الذي يمنع ذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فبالجهاد والدفع تعود للمساجد هيبتها وعزتها، كما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ثالثًا: إحقاق الحق ورفع الظلم، وخذلان الباطل وأهله:

من أهم آثار الدفع كذلك أن يحق الحق، ويبطل الباطل؛ فتعود الحقوق لأصحابها، ويرفع الظلم عن العباد والبلاد، وقد بين القرآن أن من أهم مقاصد الدفع إحقاق الحق وإبطال الباطل.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

فأخبر سبحانه أنه ما أخرج رسوله من بيته، ولا عرض المؤمنين لهذه الفتنة الشديدة -مع قلة عددهم وعتادهم-، ولا أغرى الفريقين بالقتال؛ إلا لهذه الغاية العظيمة، وهي إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ولعمر الله إنها لسنة ماضية، أن يقضي الحق على الباطل؛ فتكون الغلبة له في النهاية، وذلك أن الباطل لا يثبت أمام الحق.

قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فالحق هو الذي يبقى، وهو ما ينفع الناس، والباطل يذهب جفاء.

قال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ

أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

رابعًا: شفاء صدور المؤمنين:

ومن نتائج الدفع الحميدة كذلك شفاء صدور المؤمنين مما حل بهم من كيد أعدائهم وظلمهم لهم، والنيل من نفوسهم وأعراضهم وأموالهم.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

موضوعات ذات صلة:
الأذى، الإصلاح، التغيير، الجهاد، السياسة، الضر